

الخلق في ضوء التحليل النفسي

بقلم

كمال الدين عبد الحميد نايل

مدرس الفلسفة بمدرسة الخلية الثانوية

سنتناول بالبحث في مقالنا هذا الطفل منذ ولادته إلى أن يتكون خلقه ويتخذ السمات المميزة له . ووفقاً لذلك . سنعالج أول ما نعالج صدمة الولادة . وتطور الغريزة الجنسية في رأى فرويد وأتباعه . وعلاقة الطفل بأمه ثم الطرق المختلفة التي تتعدل بها الغريزة . وسنعرض أخيراً لنشأة « الذات العليا » في رأى فرويد وميلاني كلين .

إن التغير الذى يصحب ولادة الطفل تغير عنيف حاد ؛ فيكون الطفل غالباً عرضة للدفع القوى والجذب الشديد . ويستقل من هلوئه العميق الساكن إلى عالم البرد والذواء المتحرك والضوء والصوت الحاد ؛ ويقوم بحركات تعينه على سحب الهواء البارد إلى رئتيه ثم يدفع به ثانية مع صرخته الأولى . وهذه الصدمة — أى صدمة الولادة *trauma of birth* — هى أول صدمة يعانيها الطفل في حياته . وأول من عنى بإبراز هذه الفكرة هو أوتورانك Otto Rank^(١) فى بحث له تناول هذا الموضوع . والولادة — على هذا الوصف — هى النموذج الأول للاستجابات القلقية اللاحقة . لأنها تتضمن عادة تهديدات للكائن الحى كخطر الاختناق وخطر التزف بالنسبة لنسيج الخلايا العصبية وضروب الخطر الناجمة من الصعوبات الخاصة بعملية الولادة وملتها .

والولادة انفصال عن الأم ؛ وهى على هذا النحو إنما تكون النموذج الأول الأصيل للتهديدات المناهضة الماثلة التى ستكرر فى حياة المرء . ويمكن النظر إلى عملية النمو على أنها سلسلة من الانفصالات ؛ فهناك انفصال متضمن فى

(١) Otto Rank: "The Trauma of Birth"

عملية النظام : وهناك انفصال كذلك في ترك أحضان الأم والبدء في تعلم المشي ، وهناك انفصال كذلك عندما يترك الطفل المنزل للالتحاق بالمدرسة . ويتطلب الميلاد ضروبه وأشكالا جديدة من التوافق نظرا لوجود حالات ومواقف جديدة . وشبهه بذلك ما يحدث أثناء الحياة إذا ما صادف المرء مواقف جديدة تكون فيها ضروب الاستجابة السابقة غير ملائمة ولا موافقة فيلجأ المرء إلى محاولة استجابات جديدة تكون أكثر موافقة وتمكينا له في الرد على المواقف الجديدة . ويلجأ الرضيع إلى أفعاله المنعكسة في بدء حياته . وإذا ما تقدم به العمر فإن توافقه يقوم على أساس خبراته التي اكتسبها عن طريق التعلم . وحيثما تبدو الاستجابة التي تعلمها المرء غير كافية بالنسبة للموقف يرتد المرء على أعقابها إلى ضروب بدائية من السلوك . فالرضيع مخلوق عاجز يعتمد كل الاعتماد على الأفعال المنعكسة المزود بها لكي يتوافق مع المواقف والحالات التي تعرض له . وهذا الموقف - أي موقف العجز - هو ما تتسم به حالات القلق التي يصادفها المرء في حياته . وعلى هذا النحو ، تكون الولادة بما يصاحبها من حالات العجز نموذجاً أولياً لضروب القلق التي تحدث فيما بعد . وبالقدر الذي يشعر به المرء بقدرته بالنسبة لحالة من الحالات يقل قلقه . ويميل فرويد إلى القول بأن خبرة مثل صدمة الميلاد^(١) « لتتضمن سلسلة من المشاعر الأثيمة ومن انطلاقات التنبيه ومن الإحساسات الجنسية . مما يجعلها النموذج الأول لجميع المواقف التي تكون فيها الحياة في خطر . وإنما لتتولد من جديد في صورة الفرع أو « الحصر » . » وبعد هذه الإشارة الوجيزة إلى عملية الولادة وما تتضمنه من الدلالات النفسية . علينا أن نشير بإيجاز إلى المراحل التي تمر فيها الغريزة الجنسية في نضجها واكمالها وفقاً لرأى فرويد وأتباعه . تمر الغريزة الجنسية في نموها بثلاثة أطوار : طور الطفولة ، وطور الكون الجنسي ، وطور المراهقة . ولقد وجه فرويد وأتباعه عناية خاصة إلى الطور الأول الذي ينهى تقريباً في سن الخامسة أو السادسة تقريباً . ولقد قسمه إلى ثلاث مراحل : المرحلة التمية ، والمرحلة الاستية ، وهما غير تناسليتين . والمرحلة التناسلية الأولى المعروفة بالقضيية : وعلينا أن نتذكر أن كلمة « التناهي » نسبة إلى أعضاء التناسل وليست نسبة لوظيفة . وستناول وصف كل مرحلة بإيجاز . ولتبدأ بالمرحلة التمية : في الشهور

الأولى لحياة الطفل مكتسب الفهم رويدا رويدا أهمية بوصفه المنطقة الحسية التي يشتق منها الطفل اللذة . ونجد فيه أهدف مركز لحساسيته وإليه يرجع أعرق وجدانه وألح نزعاته . وإذا أردنا أن نحصل على ما يكشف لنا عن حدة الوجدان والنزعات التي تتركز حول الفهم وكيف أنها تكون في هذه المرحلة المحور الذي تلور حوله حياة الطفل النفسية فما علينا إلا أن نتأمل كيف يتناول الطفل الثدي بنهم شديد وكيف يتنجى عن الأشياء التي ليست بالثدي . فليس الفهم وسيلة للحصول على الطعام فحسب بل هو أدوات للحصول على معرفته الأولى بالعالم الخارجي . ولقد قسم بعض علماء التحليل النفسي هذه المرحلة إلى شتين :

(أ) المرحلة النمى المبكرة : وأهم ما يقوم به الطفل في هذه المرحلة الرضاعة سواء من ثدى الأم أو ما يقوم مقامه . وفي البدء تكون عملية مص الثدي وثيقة الصلة بغيرزة حفظ الذات ولكنها سرعان ما تنفصل عنها وتصبح في ذاتها مصدراً للذة . وقبل ظهور بشائر الأسنان تكون هذه العملية عملية بنائية تلتقي فيها اللذة والتغذية . والطفل في هذه المرحلة عاجز عن أن يدرك أنه ذات فهو لا يزال في مرحلة اللاتغاير حيث لا يوجد تمييز واضح بين الأنا واللاأنا أو بين ما هو « ذات » وما هو « غير ذات » .

(ب) المرحلة النمى المتأخرة : وفي هذه المرحلة تظهر بشائر الأسنان وتكون « الذات » قد بدأت في التمايز فيستطيع الطفل على نحو ما أن يشعر بانفصاله عن العالم الخارجي . وتأخذ نزعات الفهم في التحول من المص إلى العض . ولذا تصبح معاملته للأشياء أكثر نشاطاً وعدواناً . فيعض ويمضغ كل شئ يصل إلى فيه كأصبعه أو أصبع أمه والثدى نفسه إذا لم يكن قد تم فطامه بعد . وفي هذه المرحلة يختبر الطفل إلى جانب الحب انفعال الكراهية فيبدأ عهده بالتناقض الوجداني . ويتميز نشاط هذه المرحلة بالهدم والتدمير ولذا تسمى بالمرحلة النمى السادسة . وتستغرق المرحلة النمى على وجه التقريب السنة الأولى من حياة الطفل .

ثانياً المرحلة الإستية : ابتداء من نهاية السنة الأولى حتى منتصف السنة الثالثة تقريبا يفقد الفهم كثيراً من أهميته كمنطقة شبقية وتحتل أعضاء الإخراج مركز الصدارة كمنطقة حسية تشتق منها اللذة الشبقية الذاتية . ونرى من جديد كيف يكون النشاط الغريزي مهما في ارتباطه بالوظيفة الحسية . ويكاد يكون

عمل الوظائف الإخراجية شبيها بالأفعال المنعكسة . وعندما يتم التحكم في المعدة يصبح الغشاء المخاطي لأعضاء الإخراج أكثر حساسية ويحصل الطفل على اللذة التي كانت تشتت في البدء من النشاط الغمى بطرق متنوعة عن طريق الغشاء المخاطي لأعضاء الإخراج . وفي هذا الوقت تصبح الظروف أكثر تعقدا مما كانت عليه من قبل نظرا لأن الطفل أخذ يكون علاقات وجدانية مع الأشخاص الذين حوله . وعلى خلاف النشاط الغريزي للمرحلة الغمية نجد ضروب النشاط الشبقى الذاتى التي تتمركز حول فتحة الشرج غالبا ما تكون في خفاء عن العالم الخارجى . وقد تنحصر في إمساك الطفل للبراز حتى يضطره الأمر إلى التبرز مما يؤدي إلى حدوث تهيج أكثر لذة للغشاء المخاطي من الأحوال العادية التي يتم فيها التبرز أو عن طريق التبييج الإيقاعى عن طريق الإصبع . ويمكن أن تقسم هذه المرحلة إلى شقين : (أ) المرحلة الاستية المبكرة : التي لا يكون الطفل قد وصل فيها إلى ضبط وظيفتى التبول والتبرز فينصرف نشاطه إلى الطرد والتفريغ . وهذا النشاط نشاط هدام .

(ب) المرحلة الاستية المتأخرة : التي يتم فيها ضبط عمليتى التبرز والتفريغ . والنشاط في هذه المرحلة نشاط تكوينى بنائى .

ويظهر في المرحلة الاستية ، عدا النشاط الشبقى الذاتى ، دوافع غريزية لم تعد تتمركز حول جسم الطفل وحده وإنما تتخذ الأشخاص الذين يحيطون به كموضوعات لها خاصة الأم . وفي ذلك الوقت يأخذ الطفل في تكوين علاقة وجدانية وثيقة بأمه . ووجود الأم وعنايتها بالطفل جزء مكمل لنموه النفسى . وإذا كان الطفل في بداية هذه العلاقة يشقى لذة من وجوده بجوار أمه ومن لمسه لجسدها ومن تدليلها له . فإن سلوكه يتفصح عن دوافع عدوانية في هذه المرحلة الثانية عندما لا تشبع رغباته في الحال . وتتفصح هذه الدوافع العدوانية في صورة الغضب والكراهية كما أنها تتفصح كذلك في علاقة الطفل بغيره من الأطفال خاصة الضعاف فيأخذ الطفل في الاعتداء عليهم . ويبدو أن نضج الطفل الانفعالى في هذه المرحلة لم يصل بعد إلى درجة تمكنه من تقدير الأذى والألم الذى يلحقه بغيره من الأطفال . ومهما يكن الأمر . فإن نزعة الطفل لأن يكون موضوعا للأذى يعادلها في القوة نزعة إلى إيذاء الغير على الرغم من صعوبة التحقق من ذلك عن طريق الملاحظة .

ثالثاً المرحلة التناسلية : تمتد هذه المرحلة من السنة الثالثة إلى السنة الخامسة أو السادسة . وتتركز فيها الميل الجنسية حول منطقة الأعضاء التناسلية . ويقسمها بعض المؤلفين إلى شقين : (١) المرحلة القضيبية وفيها يتركز اهتمام الطفل حول أعضائه التناسلية مستمداً منها اللذة ويستمر نمو الأنا ويتردد ويأخذ الموقف الأوديبى دوراً هاماً .

(ب) المرحلة التناسلية : في هذه المرحلة يكون « الأنا » أو « الذات » قد تمكن من السيطرة إلى حد كبير على التناقض الوجداني الذي يكون لب عقدة أوديب واستطاع أن يجد موضوعاً لحبه في العالم الخارجي . وتتميز هذه المرحلة على وجه العموم بالاهتمام الكبير بأعضاء التناسل . وأول الدلائل على تلك التزعة رغبة الطفل في أن يعرض جسمه عارياً واهتمامه بأجسام الأطفال الآخرين . ويتخذ هذا الاهتمام من الوجهة العقلية صورة الأسئلة التي يوجهها الطفل عن الفروق بين الجنسين . ويتمثل النشاط الشبقى في هذه المرحلة في عملية جلد عميرة . والتزعات الغريزية التي يوجهها الطفل نحو الأشخاص كالأب أو الأم أو الأخوة لها قرابة بالرغبات التي يعانها الشخص البالغ في حبه . فيوجد الميل إلى امتلاك أحد الوالدين من الجنس المغاير لجنس الطفل : وتوجد الغيرة من أحد الوالدين الذي من نفس جنسه . ومع وجود الشبه بين الدوافع الغريزية للطفل والحياة الجنسية للبالغ فإن هناك فارقاً كبيراً يتلخص في أن كلا من الصبي والبنيت يهتم بعضو الذكر وينظر إليه على أنه وحده الشكل الصحيح السليم .

ويظهر في هذه المرحلة - أي المرحلة التناسلية - ما يسميه فرويد بمركب أوديب وسنعالجها بشيء من التفصيل من حيث اتجاه كل من الصبي والبنيت . يبدأ سلوك الصبي والبنيت في الاختلاف حوالى الثالثة . فيأخذ الصبي في حماية الأم ويكشف عن قوته أمامها ويقلد أباه في سلوكه بل ويتحدث عن الوقت الذي يصبح فيه قوياً مثل أبيه . وبعبارة أخرى . يود الطفل من أمه أن تعامله كحبيب . وكثيراً ما نسمع من الأطفال في سن الرابعة أنهم يودون الزواج من أمهاتهم إذا ما كبروا . ويعتري علاقة الطفل بأبيه بعض التغير : فيمترج الإعجاب بالغيرة من الأب نظراً لعلاقته الوثيقة بالأم بل يتخذ الطفل من أبيه ، في بعض الأحيان ، موقف المنافسة الصريحة . ويختلف الأمر بالنسبة للبنيت .

فتأخذ الطفلة في تغيير موضوع حبها الأصلي - الأم - ويصبح الأب هو الموضوع في حين أن موضوع الحب بالنسبة للصبي يبقى كما هو دون تغيير . ومن المألوف أن الآباء يفضلون بناتهم في حين أن الأمهات يفضلن الذكور . وتظهر الغيرة من الأم نظراً للارتباط الوثيق بالأب الذي أصبح موضوعاً للحب عند البنت . ونظراً لأن البنت ما زالت في حاجة إلى أمها ، فإنها لا تفصح عن غيرتها بنفس الدرجة التي يفصح بها الولد . وهناك عامل آخر يجعل المسألة أكثر صعوبة بالنسبة للبنت . فلقد سبق أن بينا في عرضنا لنمو الغريزة - في المرحلة القضيبية - أن عضو الذكر هو المفضل وحده . فيتولى البنت شيء من العجب وتساءل لماذا لم تخلق « ذكراً » وتنتهي إلى القول بأنها لا بد أن يكون بها عيب . وينضاف الغضب إلى الغيرة ما دامت البنت تحمل الأم مسؤولية كونها بنتاً . وعلى وجه العموم ، تتميز هذه المرحلة بالانفعالات القوية العنيفة نظراً للتناقض الوجداني Ambivalence عند الصبي : فهناك حبه لأبيه وغيرة منه . وكذلك البنت تحب أمها وتغار منها لامتلاكها لأبيها . يضاف إلى ذلك أن هذه الدوافع العنيفة لا تجد أي إشباع حقيقى لها . وفي هذا الوقت يبلغ التشوق إلى استطلاع المسائل الجنسية أقصاه . ويرضى بعض الأطفال عادة حبهم إلى الاستطلاع عن طريق رؤية الأعضاء التناسلية للأطفال الآخرين أو بالبحث الجنسي ظناً منهم أنهم بذلك يقلدون والديهم . ويتهيج الأطفال في هذه المرحلة جنسيا خاصة عند النوم ويجدون في عملية جلد عميرة راحة وتنفيساً من القلق الذي يعانونه . ويصاحب عملية جلد عميرة ضروب من الخيالات المتصلة بالمحارم والتي تكشف عن فكرة الطفل عن الحياة الجنسية كما أنها قد تتضمن عناصر سادية كمنظر الضرب التي تكون بمثابة التعبير المقنع عن العدوان الذي يحصل أثناء عملية الجماع بين أمه وأبيه . وتصبح عملية جلد عميرة في ذلك الوقت المركز الذي تدور حوله الحياة الجنسية الطفلية .

ومصير علاقة الحب الأولى الموجهة إلى والديها الإخفاق لأسباب فسيولوجية إن لم يكن لأسباب أخرى . ويتوقف مصير الحياة الانفعالية للبالغ على الطريقة التي يتم بها حل الموقف الأدبي . ولكن كيف يتأني للطفل أن يدرك عدم قدرته على إشباع رغباته ؟ فلاحظ أولاً صغر حجمه بالنسبة للوالد الذي من نفس جنسه . ومع أن الطفل ، إبان ذلك الوقت ، يدعى أنه قد نما وكبر

إلا أنه مع ذلك يتحقق من ضعفه بالنسبة لوالديه . وهناك عامل آخر أكثر أهمية ألا وهو الخوف الذي يعانيه الطفل من أحد الوالدين ، الذي من نفس جنسه . أى الأم في حالة البنت والأب في حالة الصبي ، نتيجة لمشاعر الكراهية التي يصرها له . وما زال الطفل عدوانيا . فإذا ما كره الطفل شخصا ما - على الرغم من أن هذا الشخص قد يكون موضوعا لحبه وإعجابه في أوقات أخرى - يود ألا يراه . ومعنى عدم رؤيته موته . فالطفل ما زال يترعرع إلى الاعتقاد بقوة أبيه الخارقة وعلمه المحيط بكل صغيرة وكبيرة مما يؤدي إلى أن يلقى في روعه أن أباه يعلم هذه المشاعر العدوانية التي يكنها له . كما أن أباه يعلم كذلك رغبته في امتلاك الأم ، الأمر الذي يترتب عليه أن يتوقع الطفل أن أباه يصر له نفس المشاعر العدوانية التي يصرها هو له . ولذا يخاف الطفل أن يوقع به أبوه أشد العقاب . والعقاب التقطيع الذي يخشاه الطفل هو الإخضاء . ومن المحتمل أن يكون الطفل قد حدد بالعقاب أثناء انغماسه في عملية جلد عميرة مما يجعله يعتقد أن الإخضاء كعقاب له أمر طبيعي لا شذوذ فيه . ومن ثم يصبح الطفل في موقف حرج بين رغباته الغريزية التي تلح في سبيل الإشباع والتي تهدف إلى الاستحواذ على الأم ، والخوف من عقاب أبيه الذي قد يقضى إلى سلبه عضو التذكير نتيجة لرغبته في امتلاك الأم . وينتهي الأمر بتغلب خوفه من حرمانه من ذكوريته على رغبته في امتلاك الأم . وبدلا من امتلاك الأم يتمصص الصبي شخصية أبيه ؛ فيود أن يكون مثله حتى إذا كبر كان في مقدوره أن يتزوج امرأة كأمه . ولعل لما يساعد الطفل على ذلك إعجابه بقوة أبيه . ولكن الدوافع للغريزية لا تختفي بسهولة . فما الذي يحدث لهذه الدوافع الغريزية بعد تمصص الطفل لشخصية أبيه ؟ أول ما يحدث أن الطفل لا يود أن يعرف بطريقة شعورية أى شيء يدور حول هذا الصراع ومن ثم يكبت هذا الصراع مع بعض هذه الدوافع الغريزية ، وتعمل الطاقة الكامنة لهذه الدوافع المكبوتة في تكوين الصورة المثالية للأب الذي تتمصص الطفل شخصيته . ويترتب على هذه العملية أن تفقد هذه الدوافع طابعها الجنسي . وتبقى بعض الدوافع الأخرى ولكن يعترها الكف Inhibition في غرضها الذي تستهدفه ومن ثم تتضمن الشعور بالحنان الذي يشعر به الطفل فيما بعد بالنسبة لوالديه . أما عن المشاعر العدوانية ، فإنها وقد سلبت موضوعها . تتجه إلى الطفل نفسه . وتلعب دوراً هاماً في تكوين

الضمير عند الطفل . وهذا هو الوجه السليم الذى ينتهى إليه الموقف الأوديبى . ولكن قد يحدث أن يتخذ هذا الصراع شكلا مرضيا إما لقسوة الأب أو للرغبة الشديدة فى امتلاك الأم نتيجة لغيبة الوالد الطويلة ، كما يحدث مثلا أثناء الحروب ، فمن المحتمل فى هذه الحالة أن تتحول الرغبة من الأم إلى الأب أى قد يتخلى الطفل فجأة عن الأم نظراً لقسوة الأب الشديدة ويبحث عن إرضاء الحب ودوافعه الغريزية عند الأب . ويؤدى هذا الأمر إلى اتخاذ الصبي اتجاهها سلبيا مخشياً بالنسبة لأبيه مما يؤدى إلى كبت هذه الدوافع بدورها لأن مجرد الاعتراف بها إنما هو اعتراف من الصبي بأنه أصبح كالنبت وأنه أصبح « مخصياً » . وقد يترتب على ذلك وجود اتجاه جنسى مثلى كامن أو سافر فى حياة الطفل المقبلة أو اتخاذ سلوك غير اجتماعى .

ويتخذ الصراع الأوديبى عند النبت شكلا أقل حدة من الصبي . ولو أن التغير فى موضوع الحب يتضمن صعوبة كبيرة لا يمكن أن يتغلب عليها تماما فى العادة . وبما أن الفتاة ليس لها « عضو تذكير » فإنها لا تخاف فقدته . ونحن نعرف أن شعورها بتقصها يزيد من شعور البغضاء الذى تشعر به نحو أمها . ولكننا نلاحظ من ناحية أخرى أن حبها لأمها واعتمادها عليها كبير . وبما يدفع الفتاة إلى نبذ رغباتها فى الأب والتخلى عنها هو الخوف من ضياع حب الأم ، هذا الحب الذى يادونه تصبح عاجزة . وينتهى هذا الصراع بتقمص النبت لشخصية أمها حتى تجد فى مستقبل أيامها حبيبا لها كأبيها . وتتعادل الدوافع الغريزية فى نفس الاتجاه وتحدث إمكانيات مماثلة تبعا لشدة الخوف ومشاعر الذنب التى تعانها النبت . وقد يحدث بالنسبة للنبت أن ينتهى الصراع بتقمص Identification الفتاة لشخصية أبيها بدلا من أمها الأمر الذى يفضى فيما بعد إلى اتجاهات جنسية مثلية أو قد تكبت النبت الصراع بأكمله مما يؤدى إلى التثبيت Fixation بالنسبة للمرحلة الأوديبية . ويحدث هذا عادة عندما تميل الفتاة فى حياتها المقبلة إلى حب الرجال المتزوجين !

ويترفع الأطفال الذين تمكنوا من التغلب على المرحلة الأوديبية إلى كبت كل ما من شأنه أن يذكرهم بالصراع الذى حدث أثناء هذه المرحلة . وهذا يعنى أن أى تذكير لرغباتهم الغريزية فى هذه المرحلة أو ما قبلها يطرد من مجال

الشعور . ويحدث نفس الأمر (١) بالنسبة للخبرات غير المؤدية التي عاهاها الطفل إبان تلك المرحلة والأماكن والأشخاص .

ولعل هذا هو السبب في أن كثيراً من البالغين ينسون معظم الذكريات التي تنتمي إلى ما قبل الخامسة أو السادسة . ويحدث في بعض الأحيان أن يمتد هذا النسيان إلى السابعة أو الثامنة . وهذه الأميزيا (٢) الطفلية (فقدان الذاكرة بالنسبة لحوادث الطفولة) Infantile amnesia هي السبب في عدم إمكاننا الحصول على معرفة ذكريات الطفولة وحوادثها قبل أن يتمكن فرويد من ذلك عن طريق اصطناعه لمنهج التحليل النفسي الذي يقوم على التداخي الحر كدعامة له .

وبعد المرحلة التناسلية يدخل الطفل في فترة الكمون التي تمتد حتى البلوغ وهي مرحلة إعداد لفترة المراهقة . وفي هذه الفترة لا يكون للطفل نشاط جنسي جديد فيصرف إلى حل عقدة أوديب على النحو الذي شرحناه من قبل . وفي أول العهد بالمراهقة تظهر هذه المراحل مرة أخرى لفترة قصيرة ولكنها لا تلبث أن تختفي لكي تنصرف الحياة الجنسية عند المراهق إلى النضج والاكتمال .

وبعد أن فرغنا من ذكر مراحل النمو بما تتضمنه من أوجه النشاط النفسي علينا أن نعرض للعلاقة الوجدانية التي تربط الطفل بأمه لما لها من أثر كبير في تكوين خلق الطفل وطبعه بطابع يظهره أثره بوضوح في مستقبل حياته . وإذا أردنا أن نرسم صورة أكثر وضوحاً لمصير الدوافع الغريزية المختلفة علينا أن نتمعق في بحث نمو أول وأوثق علاقة في حياة الطفل . ولا تترك هذه العلاقة الأولى أثرها وطابعها على شخصية الطفل إذا ما تقدم به العمر فحسب . ولكن من المعروف كذلك أن الجانحين delinquents ما هم إلا أشخاص قد أصابهم الفشل والحرمان في علاقاتهم الإنسانية .

تنمو علاقة الطفل بأمه منذ مطلع الحياة على نحو بطيء . ويعتقد أغلبية المحللين النفسيين أن علاقة الطفل بأمه أثناء الأسابيع الأولى بل والشهور الأولى كذلك هي علاقة بسيطة نوعاً ما . ولقد انتهوا إلى هذا الرأي نتيجة لخبرتهم التي

1. Kate Friedlander. "The psycho-analytical approach to juvenile delinquency" p. 43

2. Freud, S. "Three contributions to the theory of Sexuality"

اكتسبوها من تحليل البالغين والأطفال وملاحظاتهم المباشرة للأطفال منذ ولادتهم . فالأم هي الوسيلة التي تشبع حاجات الطفل الجنسية . وأى فرد يحقق هذه الوظيفة للطفل يستثير عنده نفس الاستجابة : ولقد قال فريدلندر من علماء التحليل النفسي خاصة مسز ميلاني كلين بنظرية في النمو النفسى لدى الطفل تفيد وجود علاقة نفسية معقدة بين الطفل وأمه تظهر مباشرة عقب الولادة . ولكن ليس في الإمكان حتى الآن : كما يقول كيت فريدلندر الحصول على الحقائق العلمية التي تؤيد هذه النظرية بل : على العكس ، تميل بنا الحقائق التي في متناولنا إلى تدعيم رأى القائل بالنمو البطئ^(١) للحياة النفسية على أساس الحاجات الجنسية .

لا يستطيع الطفل في مبدأ حياته أن يميز بين ذاته والعالم الخارجى . ويبدأ الرضيع حتى هذه اللحظة ألا يشعر بما يدور حوله . ويبدأ الرضيع فقط في الشعور بوجوده إذا ما كان هناك ما يقلق راحته . وهو لا يستطيع أن يميز ما إذا كان مصير عدم الراحة شعوره بالجوع أم أنه يرجع إلى عامل خارجى . ويستجيب لكل ما يقلق راحته سواء كان مصدره باطنياً أم خارجياً بشقاء بالغ يعلنه إلى العالم الخارجى عن طريق بكائه . فإذا ما أشبعت حاجاته نام من جديد وبعبارة أخرى سحب انتباهه من العالم الخارجى . وتصبح الأم مرتبطة عند الطفل بإزالة الألم وانتفاء حالة عدم الإشباع على نحو بطئ . إبان الأسابيع والأشهر الأولى خاصة عند الأطفال الذين يرضعون من ثدى أمهاتهم . وعلى ذلك تقوم أول علاقة تربط الطفل بأمه على أساس إشباع الحاجات المادية وحدها . وعدم قدرة الطفل على إزالة ما يقلق راحته هي السبب في اعتماد الطفل المادى على أمه أو بديل الأم . وفي أثناء النصف الثانى من العام الأول نلاحظ تغيراً في علاقة الطفل بأمه . ولا يفيد هذا التغير أن الطفل لم يعد راغباً في إشباع حاجاته بل إن هذا الأمر يصبح مهماً كما كان ، ولكن كل ما هنالك أن الطفل أصبح قادراً على التمييز بين أمه والمحيطين به . ويود أن تكون أمه باستمرار إلى جانبه حتى ولو لم يعان ألماً فيجب أن يلمسها بيديه ويداعب ثديها ويتسم لها . ومن المحتمل أن تكون هذه الوحدة النفسية التي تبدأ في التكوين إبان ذلك الوقت والتي تصل إلى قممها أثناء العام الثانى ، شديدة عند الأطفال الرضع الذين

١. Kate Friedlander: "The psycho-analytical approach to juvenile delinquency", p.23

تربطهم صلة وثيقة بأجسام أمهاتهم . ومع ذلك . فربما كان من المبالغة الزعم أن العلاقة التى تربط الطفل بأمه تختلف فى الكيف فى حالة الأطفال الذين يرضعون من الثدي عنها فى حالة الأطفال الذين يتناولون طعامهم من « المصاصة » . والذي يهنا أكثر من هذه العلاقة المباشرة بتدى الأم إنما هو اتجاه وموقف الأم بالنسبة للطفل من حيث هو اتجاه مطبوع بصفة أود والحنان أم لا . ومن المحتمل صحة القول الذى يذهب إلى أن مشاعر الطفل فيما بين السنة الأولى والثانية بالنسبة لأمه مماثلة لما نسميه بالحب . وإن هذه المشاعر لتبلغ فى عمقها واستمرارها مشاعر البالغ . ويساهم كثير من العوامل فى تقوية هذه الصلة . فهناك اعتماد الطفل المطلق على أمه لأنها الشخص الذى يمنع الموت عنه . وهناك أيضاً دوافع الطفل الغريزية الآخذة فى النمو والتى اتخذت العالم الخارجى لأول مرة هدفاً لها . وهناك أيضاً الظاهرة التى تنفد أن هذه الدوافع الغريزية ، التى يمكن وصفها أضبط وصف وأكمله فى هذا الوقت على أنها رغبة الطفل فى أن يستبقى جسم أمه أقرب ما يكون إليه . لا تطبق الانتظار حتى تشبع لأنها تولد توتراً نفسياً عنيفاً فى الطفل يدفعه إلى التماس الراحة فى الحال . وفى المرحلة المبكرة لهذه العلاقة ، أى فى النصف الأول من العام الثانى . لا تزال الوحدة التى تربط الطفل بالأم كاملة . فرغبة الطفل الملحة فى أن يتناول غذاءه ويستبقى أمه بجواره مرعية ، والأم بدورها مغتبطة برؤية طفلها يقبل جيداً على غذائه ولشعوره بالسعادة بجوارها .

ويعادل شعور الطفل الشديد بالحب لأمه فى الأهمية شعوره بالخوف من أن تتركه أمه وحده . ولقد تعلم الطفل بالفعل أن يربط الشعور غير الملائم الناتج عن عدم إشباع حاجاته الغريزية بغياب أمه . ومن ناحية أخرى . نلاحظ أن الطفل لم يدرك بعد أن غياب أمه ما هو إلا غياب عارض مؤقت . فأى غياب للأم يشعر الطفل بالشقاء الذى لا يمكن مقارنته إلا بالغم الذى يعانيه البالغ من فقد شخص عزيز عليه . فالطفل فى هذه المرحلة لا يعرف للماضى والمستقبل وجوداً . وكل ما يعنيه هو الحاضر الذى يعيش فيه ويشعره بالسعادة أو الشقاء . ولقد جمعت كل من آنا فرويد Anna Freud ود . برلينجهام D. Burlingham مادة قيمة جداً فيما يتعلق بانفصال الطفل عن أمه فى هذه المرحلة التى تتميز بهذه العلاقة الوثيقة السعيدة بين

الطفل وأمه . وتفسر الاستدلالات والنتائج التي انتهيا إليها كثيرا من الأعراض Symptoms التي ظهرت أثناء هجرة الأطفال إبان الحرب العالمية الثانية . ول سوء الحظ . فإن علاقة الطفل بأمه ليست بالعلاقة المرضية الملائمة على طول الخط . وتسير الأمور كما يشئ الطفل لوقت معين . فمن المعروف أن حب الأم يلعب دوراً هاماً في النمو النفسي للطفل . كما أن الخوف من تلك الأم كذلك يلعب نفس الدور إن لم يفقه في الأهمية الأمر الذي يترتب عليه أن يتنازل الطفل عن بعض دوافعه الغريزية حرصاً على هذا الحب وخوفاً من ترك الأم له وحده .

ولكن سرعان ما تتأزم الأمور أمام الطفل : فهناك الأطفال الكبار الذين يشاركون في حب الأم . وهناك الأب ذلك الكائن الجبار الذي يستحوذ على الأم . بل هناك كذلك احتمال مجيء طفل صغير سيحظى بمعظم عناية الأم إن لم يكن كلها . كل هذه الأمور يتركها الطفل بوضوح أكثر في عامه الثالث ويقدر ما لها من أهمية . ونعلم أن النزعات العدوانية قد أصبحت قوية في هذا الوقت نوعاً ما مما يجعل الطفل يستجيب لكل موقف يشعره أو يتهده بالخيبة بالغیظ أو الكراهية . ومع أن هذه المشاعر قوية إلا أنها سرعان ما تنقشع ويسود الحب الموقف من جديد . ولقد ظن البعض أن في الإمكان تنشئة الطفل وتربيته دون أن يكون عرضة لمشاعر الكراهية والخيبة . ولكن قد ثبت بطلان هذا الزعم . ولا يمكن أن تسم السعادة علاقة الطفل بأمه دوماً لأن مطالبه كثيرة إلى حد كبير . ولأن إلحاح غرائزه يبلغ حداً فائقاً من العنف : فلا يرضى الطفل بأقل من ملازمة أمه طول الوقت دون أن يشاركه فيها أى مخلوق . ولا شيء يضمن له سعادته إلا تحقيق وإشباع حاجاته ورغباته في الحال . فكأنما الأمر ينید الاستمرار في إرضاع الطفل وتركه قدراً والسماح له بأن يوقع الأذى بغيره من الأطفال وصغار الحيوان .

ومع أن هذه العلاقة بالأم كفيلة بأن تشعر الطفل بالشقاء والخيبة في بعض الأحيان مهما أظهرت الأم من حب وحنان . فإن مسلكها وطريقها التي تتخذها في ترويض طفلها لها أثر كبير في تكوين خلق الطفل . والشقاء الذي يشعر به الطفل نتيجة لعدم إشباع حاجاته قد يكون من الممكن احتمالاً أو عدم احتمالاً . وإذا لم يكن في الإمكان أن ينشأ الطفل وينمو في سعادة مطلقة فليس

علينا إذن إلا أن نحول ما يشعر به من عدم التوقع نتيجة لعدم إرضاء حاجاته الغريزية في التو واللحظة إلى أداة تربوية .

وبعد نهاية العام الثالث . يلحق علاقة الطفل بأمه بعض التغير . فيدخل الأب والإخوة في مجال الطفل على نحو أكثر وضوحاً وتميزاً كما أن رغبات الطفل وشوافعه الغريزية لا تتركز بنفس الدرجة السابقة حول الأم .

وهنا نقطة مهمة لا بد من تبيانها إذا ما أردنا أن نفهم الطريقة التي يتكون بها خلق الطفل على نحو واضح ألا وهي ذكر الطرق التي تتعدل بها دوافع الطفل الغريزية وتجعل سلوكه يتسم بطابع اجتماعي مقبول . بما أن الطفل يولد في مجتمع متمدين ويخوطة منذ ولادته إلى مماته أشخاص لهم مقاييس معينة من السلوك - أيا كانت طبيعة هذه المقاييس في أي مجتمع كان - فإن تربية الطفل على أن يتوافق في سلوكه مع مبدأ الواقع تبدأ عالياً منذ الولادة . وبالقدر الذي وصل إليه تقدم معرفتنا وتطورها حتى الآن . يبدو لنا أن نضوج الدوافع الغريزية يكاد أن يكون عاماً كما أنه يكون بمعزل عن العوامل المحيطة في حين أن تعديل الغرائز والنو الانفعالي الملاحق لها إنما يتأثران إلى مدى بعيد بالوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الطفل .

ومن المعروف أن الطئيل منذ بدء حياته ينتظر طعامه . وتختلف العائلات اختلافاً بيناً في اتباعها للنظم العلمية في تغذية الطفل . وعلى أية حال ، فإن على الطفل أن ينتظر بعض الوقت حتى يحين موعد الرضاعة . ومن المحتمل أن اتخاذ نظام معين في إرضاع الطفل في الشهور الأولى يترتب عليه تولد فعل منعكس شرطى . وحوالى نهاية العام الأول يبدأ الطفل في محاولة التغلب على هذا الفعل المنعكس الشرطى نتيجة لإلحاح الدوافع الغريزية التي تجاهد في سبيل الإشباع في الحال دون الخضوع لما تقتضيه هذه الأفعال المنعكسة . ومن ثم فإن الانتظار اللازم للمواعيد المحددة للتغذية سيترتب عليه حدوث أول نزاع بين رغبات الأم ورغبات الطفل . ولكن هذا النزاع ليس عنيفاً لأن الأم بدورها تود تغذية الطفل . ولكن لا يلبث الأمر أن يتغير في وقت النظام خاصة إذا ما وقع الفطام في أواخر العام الأول . فيود الطفل الاستمرار في الرضاعة من حلمة الثدي . فإن الرضاع في هذه المرحلة يتضمن معنى أكثر من مجرد الحصول على الطعام ، كما أن الأم تود أن تستبدل بالثدى « المصاصة » . وإذا ما حدث الفطام فجأة

فقد يرفض الطفل الطعام فترة ما ولكن ينهى الأمر برضوته . فإن اعتماده على أمه يبلغ حداً كبيراً كما أن الجوع يلح عليه إلحاحاً شديداً الأمر الذى ينهى به رغبة منه فى تخفيف التوتر المتزايد الذى يعاينه . إلى أن يتعلم كيف يشبع حاجته عن طريق شئ بديل (١) . وإن عملية النظام للبالغة الأهمية فى تطور ونمو الطفل النفسى : فهى تمثل أول صراع بين رغبات الطفل والعالم الخارجى الذى يتمثل بشكل بارز فى رغبات أمه وأوامرها . فعلى الأمهات أن يمتنعن لهذا النظام بطريقة تدريجية وأن لا يلجأن إلى التفتة فى تنفيذ النظام كأن يعمدن إلى تعويد الطفل على « المصاصة » بجانب الثدي قبل حلول النظام حتى يتعود الطفل عليها . وتبدو فى عملية النظام ظاهرة نفسية بالغة الدلالة ألا وهى تحويل الطفل لإعجابه من ثدى أمه إلى « المصاصة » . ومعنى ذلك انتقال الدافع الغريزى من موضوعه إلى موضوع بديل له به بعض الصلة . ولكن هذه العملية لا توجب تغيراً فى الدافع الغريزى نفسه . وكل ما يحدث هو تغيير الموضوع . ومع ذلك ، فإنها تفيد أن الطفل أصبح مرغماً على أن يكتفى ببلدة أقل مما كان يحصل عليها عندما كان يحصل على غذائه عن طريق الثدي . كما تفيد أيضاً تخلق الطفل عن تلك الصلة الوثيقة التى كانت تربطه بجسم أمه . هذه الصلة التى يغرم بها الطفل غراماً شديداً . ويلعب هذا الإبدال - أى انتقال الطاقة الجنسية فى مثالنا هذا من موضوعها الأصلى إلى موضوع بديل - دوراً كبيراً فى حياة الطفل المقبلة وتربيته . ويتمثل فى إقلاع الطفل عن أى عمل لا يحظى بالقبول الاجتماعى فى سبيل عمل اجتماعى مقبول . ويجب أن نتذكر أن الطفل يتنازل عن كمية معينة من اللذة الغريزية فى الإبدال الذى يقوم به . والإبدال ما هو إلا ميكانيزم من الميكانيزمات التى تتعدل عن طريقها الطاقة الغريزية . ويبدأ ظهوره منذ وقت مبكر فى حياة الطفل نتيجة لمطالب الظروف الخارجية التى تحيط بالطفل . والقوة التى تدفع الطفل إلى تقبل الشئ البديل هى العلاقة الوجدانية التى تربطه بأمه . هذه العلاقة التى تكون قد وصلت إلى درجة وثيقة . والموضع الثانى الذى نلاحظ فيه اختلافاً بين سلوك الطفل وسلوك الراشد يتضح فى تعويد الطفل وتدريبه على النظافة . ومن الواضح أن الموقف هنا يخالف موقف الطفل أثناء السنة الأولى . فإن ذكاء الطفل يأخذ فى النمو والزيادة كما أن

علاقته بأمه لم تعد بنفس الدرجة التي كانت عليها من قبل نظراً لشعور الخيبة الذي سببته له من قبل . حقاً إنه ما زال يعتمد على أمه ولكنه يشعر في نفس الوقت شعوراً غامضاً بأن له بعض السلطة والتأثير على من حوله كأن يكون طفلاً مشاكساً . فإن دوافعه الغريزية تصل إلى حد كبير من العنف والقوة في ذلك الوقت . وعلى الطفل أن يطمئن من حدثها أو يخفيها إذا ما أراد أن يعيش في سلام مع المجتمع المحيط به . وإن قوة الرغبات الغريزية للطفل لتبدو واضحة في تلك المرحلة إذا ما قارنا سلوكه . إذا ما طالبنا منه أن يتخلى عن شيء ما يحقق له لذة غريزية . بسلوكه الذي يبدو منه إذا لم نشجعه على إتيان عمل من الأعمال يود عمله لمجرد حب الاستطلاع . ونذكر على سبيل المثال أن جميع الأطفال مغرمون باللعب بالنار ويودون أو اقتربوا منها وشوها . وبعض الأطفال - إن لم يكن الغالبية العظمى منهم - يمتنع عن الاقتراب منها أو لمسها إذا ما أخبرناهم بأنها تضرهم - أو تؤذيهم - وأنها مصدر خطر . وقد يلجأ البعض الآخر إلى العبث بها ولكن الألم الذي يعانونه من جراء ذلك قد يكون كافياً لردعهم عن تكرار هذا العمل . وتظهر الأمهات الاشتزاز من قدارة أطفالهن وقد يلجأن إلى طرق عنيفة في سبيل تعويد الطفل النظافة . ومع ذلك ، فإن الطفل قد يستمر مدة ما قدراً إن لم تلجأ إلى طرق صارمة في سبيل إقلاعه عن هذا المسلك . ولكن بدء الطفل في تقليد الأطفال الآخرين والراشدين يكون واضحاً في ذلك الوقت فيحاول أن يقلع عن هذا السلوك . والعملية التي يتم بها تحويل اللذة التي يشتمها الطفل من القدارة إلى سلوك البالغين الذي ينسم بالنظافة ما هي إلا عملية طويلة معقدة . والدافع الذي يدفع الطفل إلى أن يقلع عن هذه اللذة إنما هو حبه لأمه وخوفه منها . وسرعان ما يفهم الطفل أن أمه لا تود منه أن يتبول على نفسه . وفي ملاحظتنا للأطفال الذين تعلموا المشي حديثاً أو الذين هم في سبيل أن يتعلموه ، نراهم لا يعيرون هذه المسألة أية عناية . ولكن بمرور الزمن خاصة عندما يلاحظون علامات التقدير والتسود على وجوه الأمهات إذا لم تبتل ملابسهم . يبدأون في الحرص على إتيان هذا السلوك الذي يرضى الأمهات . ومن الواضح أن الطفل يود بشكل قاطع أن يحتفظ بمحبة أمه . وبخطوات بطيئة واثقة يوحد الطفل بين رغبته ورغبة الأم ويبدأ في مكافحة دوافعه وحوافزه الباطنية أي يتم تقمص الطفل لشخصية أمه . ويمر بعض الوقت حتى يصبح الطفل نظيفاً

حقاً : وفي أثناء ذلك يشبع الطفل رغبته في أن يكون قدراً فيعمد إلى اللعب في برازه . ولكن سرعان ما ينكر الطفل صلته بهذا السلوك الذى لا ترتضيه أمه أو يصف نفسه بالشقاوة . وإذا ما تمكن الطفل من ضبط عضلات المعدة فإن اللذة الناتجة عن نجاحه تثبت سلوكه في هذا الاتجاه الجديد . وليس بالأمر الغريب أن نرى الطفل يبالغ في إظهار اشترازه من قدارة الأطفال الآخرين كما لو كان غير واثق من نجاحه السابق في ضبط عضلات المعدة ومن جهوده التى بذلها في تحقيق هذا العمل : هذا إن لم يستجب الطفل بعنف إزاء كل شئ يمكن أن يذكره باللذة السابقة التى أصبحت غير مرغوبة الآن . ولكن علينا أن نساءل : ما الذى حدث للدافع الغريزى نفسه في هذه العملية ؟ لقد استبدل بالدافع الغريزى النزعة المضادة . وبعبارة أوضح أصبح سلوك الطفل يتفصح عن عكس النزعة المكبوتة : فبدلاً من أن يكون الطفل قدراً تبدو رغبته واضحة في أن يكون نظيفاً أو بدلاً من أن يعمد إلى إيذاء الأطفال الآخرين يتفصح سلوكه عن الشفقة .

ومن الممكن ملاحظة أن الرغبة الاجتماعية تكون دوماً في نفس قوة الدافع الغريزى الأصيل . فتستخدم الطاقة الكامنة وراء الدافع الغريزى لإضعاف هذا الحافز وتقوية النزعة المضادة . ويسمى هذا الميكانيزم بميكانيزم رد الفعل Reaction-Formation .

والنظافة والقدرة على الشعور بالشفقة ما هما إلا مظهران من مظاهر تكوين الخلق . وهذا المثال يبين لنا كيف أن تعديل الدافع الغريزى يقضى إلى تكوين الخلق عند الطفل . وتوجد أيضاً نزعات غريزية تنتمى إلى المرحلة الاسمية السادية على الطفل أن يعدل من اتجاهاتها إذا ما أراد أن يعيش في سلام مع المجتمع . ونذكر على سبيل المثال اعتقاد الطفل بأن برازه شئ ثمين ولا يبعث بحال من الأحوال على الاشتزاز . فاليراز شئ من نتاجه بل إن الطفل ينسب إليه في ذهنه جميع القوى السحرية . فهذا السلوك . انصادر عن دوافعه الغريزية في ذلك الوقت . لا بد من أن يخفى . فإن عليه أن يتخلى عن برازه لأن هذا هو رغبة أمه . وعليه كذلك أن ينظر إليه على أنه شئ يبعث على الاشتزاز . فانقل الاهتمام من البراز نتيجة للتدرب على النظافة إلى الرغبة في الاستحواذ والامتلاك بصورها المتعددة : كالتعب أولاً . وإذا ما امتد به العمر إلى النقود .

وإن قوة ارتباط الطفل ببرازه لتبدو واضحة في العناد الذي يقابل به الطفل رغبة أمه في أن يبرز في أوقات معينة وأماكن مخصصة . ونكرر القول بأن القوة الأصلية للدوافع الغريزية إنما تقدر بقوة الطاقة المنقولة . ونجد عادة سمات الخلق الآتية موجودة في شخصية معينة : كالعناية بالنظافة والحبل المفرط لجمال والعناد .

وإذا كنا الآن قد فرغنا من ميكانيزم الإبدال ومؤداه انتقال الطاقة الجنسية من موضوعها الأصلي إلى موضوع آخر له به بعض الصلة ، ومن ميكانيزم رد الفعل الذي يفيد أن سلوك الطفل يتفصح عن عكس النزعة المكبوتة ، فعلينا أن نذكر أن لهُذين الميكانيزمين هدفا اجتماعيا . فقد يتخذ ميكانيزم رد الفعل صورة النظافة أو الشفقة أو الحجل أو الاشمئزاز . وكلنا يعلم جيداً أن هذه صفات لا بد من توفرها في الإنسان . ومع ذلك فإن ميكانيزم رد الفعل ليس بالميكانيزم الاقتصادي إذا ما وضعنا الطاقة النفسية موضع الاعتبار . وربما كان هناك طرق أكثر كفاية وملاءمة لمعالجة هذه الدوافع الغريزية . فقد يحس الطفل رغبة في إيذاء طفل آخر ولكنه يتعلم في الوقت المناسب أن نتيجة هذا العمل لن تكون سارة له . وقد يلجأ الطفل إلى تعذيب الحيوان وإيذاؤه ولكنه يمتنع عن إتيان ذلك إما نتيجة للتواهي التي تصدر إليه من المحيطين به أو لمعرفته أن الحيوان يعاني الألم كما يعانيه هو إذا ما أؤذى . ومن هنا يبدأ سلوك الطفل في أن يتخذ شكلا اجتماعيا مقبولا : فبدلاً من أن يتسلى ببنر أرجل الحشرات كالعناكب يبدأ الطفل بتهشيم وتحطيم لعبته وهذا العمل قد يؤدي بدوره إلى أن يبدأ الطفل في فحص الأشياء التي تقع في دائرته ويتحسس الطريقة التي تسير وفقاً لعبته الآلية كسيارته الصغيرة ... وقد يحاول تركيب هذه اللعب من جديد . ومن هنا ترى أن الغريزة قد انحرفت عن هدفها الأصلي - أي إيذاء الغير وتعذيبه - إلى هدف اجتماعي جديد أي الحل والتركيب . ويبدو في هذا الميكانيزم الذي نسميه إعلاء أن الجزء الأكبر من الدافع الأصلي قد استخدم في نشاط اجتماعي . ويعتبر الإعلاء بحق من أكثر الطرق نفعا واقتصاداً لتعديل الغريزة : فيبدو كامناً وراء كثير من ضروب النشاط الإنساني .

وهنا ملاحظة لا بد من ذكرها ألا وهي أننا قد افترضنا في كلامنا عن ميكانيزمات الإبدال ورد الفعل والإعلاء توفر الوقت اللازم للطفل لكي يكيف

سلوكه للوسط الاجتماعي الذي يحيط به : وأن الخوف مما عسى أن يحدث للطفل إذا ما انغمس في نشاط يشق منه لذة ليس طاعياً . ولكن قد يحدث الشعور المفاجئ بالخشية أو المخاوف المرتبطة بإرضاء الميول الغريزية نتائج مخالفة تماماً . ولنتذكر على سبيل المثال الدافع العدواني الذي أتمثل في رغبة الطفل في إيذاء أخيه الصغير . فقد يصدم الطفل نتيجة لضربه من أحد أفراد عائلته البالغين إذا ما حاول الاعتداء من جديد على أخيه الصغير . ومن ثم تتحول الغريزة إلى ضدها . فإن الرضاء يشق في هذه الحالة من تقبل الطفل للأذى واتخاذ موقفاً سليماً بدلاً من أن يكون هو مصدر الأذى الأمر الذي يترتب عليه ضالة الفائدة التي تعود على الطفل في بناء خلقه . ولكن قد يجد الدافع الغريزي مخرجاً آخر . فإن الطفل العدواني في هذه التجربة المعينة قد يفقد فجأة جميع نزعاته العدوانية ويصبح في نفس الوقت حاملاً . فقد اختفت النزعات العدوانية من سلوكه الصريح . ولكن هل اختفت هذه النزعات إطلاقاً ؟ فقد يلجأ نفس هذا الطفل إذا ما تقدم به العمر إلى إلحاق أذى شديد بأخيه الصغير فجأة . وعلى الرغم من أن هذه النزعات العدوانية قد استبعدت من الشخصية الشعورية للطفل إلا أنها لم تختف لأن الطاقة النفسية لا تتلاشى بل كبتت في اللاشعور حيث تبقى في صورتها الأصلية . ويتطلب كبت هذه الدوافع المضادة للمجتمع قسطاً كبيراً من الطاقة النفسية . وكل من الطاقة النفسية الكامنة وراء الدافع الغريزي الأصلي والطاقة المستعملة في كبت هذا الدافع قد ضاع على الطفل استغلالها في نشاط مفيد . وأكثر من ذلك : فإن الأمر ليس قاصراً على اختفاء هذه النزعات العدوانية فحسب بل إن الأمر يتعداها إلى أي نشاط يرتبط بهذه النزعة القديمة يكون مصيره كذلك . ومن ثم يضع على الطفل قدر كبير من الدوافع الشيطنة التي تدفعه للعمل . ولكن هذه الدوافع الغريزية المكبوتة تعمل باستمرار على تهديد الشخصية الشاعرة . وقد تأتي اللحظة التي تستطيع فيها أن تنفصح عنها بشكل صريح أو مقنع .

ولقد عرفنا أن تعديل الدوافع الغريزية في هذه المرحلة إنما يحدث عن طريق علاقة الطفل بأمه وأن الانفصال المفاجئ عن الأم قد يفضي إلى حدوث تكوّن أي ارتداد الطاقة الغريزية إلى مستوى من النمو قد جاوزه الطفل . وهذا ما حدث إبان الحرب العالمية الثانية عند ترحيل الأطفال واضطرابهم لترك

أهماتهم بسبب الغارات . فقد لوحظ أن هؤلاء الأطفال قد قل ميلهم إلى النظافة عما كان عليه من قبل أي أن الأطفال قد ارتدوا إلى نمط توافقي أقل مرتبة وتمشياً مع نموهم النفسي . فإذا لم يتمكن الطفل من إشباع حاجاته بالنسبة لمستوى معين يرتد إلى مستوى سابق يسهل عليه فيه أن يشبع حاجته الغريزية لأنه قد سبق أن أشبعها فيه من قبل . ويمكن أن يحدث النكوص في أية مرحلة من مراحل النمو نتيجة للشعور بالخيبة أو الإشباع المفرط . والنكوص أton من ألوان التوافق عن طريق الانزواء لأن الطفل لا يحاول فيه أن يحل مشاكله بطريقة مباشرة بل يرتد إلى نمط توافقي أقل مرتبة وتمشياً مع نموهم النفسي . والمستوى الذي يصل إليه النكوص ليس خاضعاً بأي حال من الأحوال للصدفة . فإن الدوافع الغريزية أثناء نضجها تصادف استجابات متنوعة . وإذا ما حدث في أي مرحلة من مراحل النمو - ولكن المرحلة الاستية السادية - أن وجد الطفل إشباعاً مبالغاً فيه أو إذا ما أحبطت رغبته دوماً في هذه المرحلة فإن جزءاً من الطاقة الغريزية يعاق ويثبت عند هذه المرحلة . وإذا ما تقدم بالطفل العمر وأصبح لإرضاء حاجته بالنسبة لمستوى أعلى من مستويات النمو مستحيلاً ، ترتد الطاقة الغريزية إلى المرحلة القديمة التي حدث عندها التثبيت Fixation .

ولست كل الدوافع الغريزية التي تنفصح أثناء مراحل النمو معدلة أو محولة . ويوجد كل إنسان نفسه مضطراً إلى السماح لقدر معين من الدوافع الغريزية بالإشباع الغريزي المباشر . ومع ذلك فإن هناك اختلافات بينة واسعة بين الأفراد في درجة العلاقة بين الإشباع المباشر وغير المباشر أو المعدل . فإن الدوافع الغريزية للمرحلة التضييية phallic stage التي تظهر في البلوغ كالدافع التناسلي يمكن بل ينبغي أن تجد إشباعاً مباشراً في الحياة الجنسية للراشد ولو أن في الإمكان إعلاء هذه الدوافع التناسلية إلى درجة معينة بالنسبة لفترة معينة . وتبقى بقايا الدوافع الغريزية للمرحلة التضييية بدرجة تكاد تكون غير معدلة مثال ذلك التميل بالنسبة للنشاط الجنسي ، والنزعات التي ترمي إلى كشف الجسم وعرضه وبوجه خاص عند المرأة Exhibitionistic Tendencies والدوافع العدوانية عند الرجل . وتخفى الدوافع الجنسية للمرحلة ما قبل التناسلية Pregenital Phase لعدم ملائمتها للسلوك الاجتماعي وقد عرضنا من قبل للميكانيزمات التي تعدل بها هذه الدوافع الغريزية . ولا تظهر كل هذه الميكانيزمات في

بدء حياة الطفل . فالكبت يفترض أن شخصية الطفل أصبحت قوية للدرجة تسمح لها بأن تتحكم في الغريزة . الأمر الذى لن يتحقق إلا عند نمو الأنا أو الذات بدرجة تسمح لها بذلك أى فيما بعد الثالثة . ويتطلب الإعلاء القدرة وبدء الحس الاجتماعى عند الطفل ولا يظهر عمله بدرجة واضحة قبل الخامسة وعلى العكس من ذلك نجد الإبداء يظهر فى البداية . والأمر كذلك بالنسبة للتكوص . ويظهر رد الفعل أول ما يظهر أثناء المرحلة الاستية السادية . ولا نجد دوافعنا الغريزية فى حضارتنا الحالية مخرجا يسمح لها بالإشباع . ومع أن الكبت الجنى قد خفت حدته فى عشرات السنين الأخيرة : إلا أن الدافع الجنى لا يمكن إشباعه وقت ظهوره مباشرة ولا ينبغي كذلك أن يشبع . ومع أن الدافع الجنى قد يجد فرصة لإشباعه فيما بعد . فإن الدافع العدوانى يتطلب القدر الكثير من التعديل إذا ما أردنا حياة اجتماعية مقبولة . وإن حضارتنا الحالية بإصرارها وتمسكها بعدم إعطاء الفرص المواتية لإشباع جميع الدوافع الغريزية لتدفع ثمنها غالبا ألا وهو ذلك الاضطراب العصابى الذى يشيع بين نسبة كبيرة من البشر . ومع ذلك : فإن الأمر لا يدعو إلى التشاؤم . فقد اختلفت نظرتنا إلى طبيعة الحياة النفسية اختلافا محسوسا عما كانت عليه من قبل . ولكن الموقف يبدو أقل خطورة إذا ما كان فى إمكان المرء أو أقاربه أن يختاروا له الميكانيزم أو الطريقة التى يتمكنون بها من تعديل وتوجيه دوافعه الغريزية . وبما لا شك فيه أن الوسط الاجتماعى الملائم قد يساعد فى تحقيق ذلك . ومع ذلك . فإن كل فرد منا يعانى الكبت ورد الفعل . ولقد سبق لنا القول بأن هذه الميكانيزمات تسلب الإنسان قدراً من الطاقة النفسية كان من الممكن بذله فى ضروب أخرى من النشاط . ونلاحظ من جديد أن عوامل الكم هى التى تميز شخصية فرد عن غيره أكثر من عوامل الكيف . وليس الكبت دائماً بالعامل المعطل . وكثير من الأشكال التى يتخذها ميكانيزم رد الفعل كالنظافة والشفقة من السمات المقبولة لتكوين الخلق . وقد نجد بعض الإعلاء حتى فى الشخصيات العصابية . ويمكن أن نرجع إلى درجة معينة أى الميكانيزمات التى يختارها الفرد فى تعديل غرائزه إلى عوامل قسرية . والشخص الذى يتمتع بقسط كبير من الذكاء والقدرات يكون أكثر قدرة على إعلاء دوافعه الغريزية من الشخص المتأخر عقليا . وعلى الرغم من وجود هذه القدرات الفطرية : وعلى

الرغم أيضاً من أننا لا نستطيع اختيار أفضل هذه الميكانيزمات اختياراً مقصوداً . فإن الوسط الاجتماعي يلعب دوراً هاماً في مصير هذه الغرائز . وإن تعديل الحوافز الغريزية الأصلية لعامل مهم في اكتساب السلوك للصيغة الاجتماعية ولا يعادله في الأهمية إلا ضرورة جعل الطفل قادراً على الانتظار في سبيل إرضاء رغبته الاجتماعية . وتتصافر كثير من العوامل في السماح لهذا النمو المزوج بأن يتخذ طريقه بشكل كاف . ويرى « كيت فريدلندر » أن هناك استعداداً مجبولاً في الدوافع الغريزية يجعلها قابلة للتطور إلى أشكال راقية من النمو . وهذا الميل البيولوجي للغرائز يجعل التطور أكثر سهولة أثناء السنين الأولى للحياة لتكوين الأبدال Substitutes أو للعمل على التعجيل بحدوث التعديل الذي يلحق الدوافع الغريزية في الوقت الذي تكون فيه المرحلة التالية تنمو على وشك الوقوع . فالطفل العدواني الذي يبلغ من العمر عامين لا يكف عن ضرب الطفل الآخر إذا ما علم أن هذا الضرب يؤديه لأن هذا هو الغرض الذي يستهدفه . ولكن بعد حوالي ستة شهور أى في الوقت الذي يصبح فيه قادراً على الشعور بالشفقة فإن هذا التفسير يؤدي إلى تعديل لغريزة العدوان .

وتلعب الاستعدادات القطرية للطفل كقوة دوافعه وحوافزه وذكائه دورها في اختياره للميكانيزمات : ولو أن هذه العملية عملية لاشعورية . وهذان العاملان الجليان لا يخضعان لتأثير العوامل الخارجية . ولكنهما يساهمان في تحقيق النتيجة الملائمة . وإن العامل الفعال في حدوث تعديل الدوافع الغريزية ليكن في علاقة الطفل الوجدانية بأمه . ولقد رأينا فيما سبق كيف تكون الرغبة في دوام حب الأم وعطفها والخوف من ضياع هذا الحب هي الدافع في تعديل الطفل لسلوكه وتعويده النظام في بدء حياته أى في الوقت الذي لا يستطيع أن يفهم فيه الطفل أى معنى للسلوك الاجتماعي وتكون الغلبة فيه لإلحاح الدوافع الغريزية . ومن هنا تفهم عظم المسؤولية الملقاة على عاتق الأم : وأهمية الطريقة التي ستسلكها في تنشئة طفلها وتعديل غرائزه . ولقد رأينا من قبل أن بعض الميكانيزمات ليست كلها ذات فائدة بل إن في بعضها تعطيلاً وضياًعاً لجزء من الطاقة . ففي الكبت ضياع للطاقة النفسية إذا ما أدخلنا في حسابنا المراحل التالية لنمو الشخصية . ويحدث الكبت إذا ما تعرض الطفل لصدمات فجائية سواء أكان مصدرها

خارجيا أم نتيجة لخوف فطرى . ومن الممكن أن نتجنب المصادر الخارجية للخوف . وإذا ما أدخلنا طبيعة وتعبير الحياة الغريزية في حسابنا فإننا يمكن أن نستنبط مبدأ عاما : إذا ما أردنا أن يسير تعديل الدوافع الغريزية على نحو كاف ، ينبغي علينا أن نعطيها الوقت اللازم . فينبغى أن نعطي الفرصة لهذه الدوافع لتتصح عن نفسها وأن نتجنب التغيرات المفاجئة . حقا . من الممكن أن ننجح في تبويد الطفل على النظافة بسرعة إذا ما لجأنا إلى الضغط وضروب التهديد المتنوعة ، ولكن لهذه الوسائل أثرا هداما في تكوين خلق الطفل . ومن ناحية أخرى . علينا أن نحترس من المبالغة في إعطاء الفرصة للطفل لإشباع دوافعه لأن هذه المرحلة ستلوها مرحلة أخرى والإفئتنا نكون قد ساعدنا الطفل على التثبيت بالنسبة لهذه المرحلة التي أشبع فيها حاجاته إشباعا مفرطا . فينبغى أن يحرم الطفل من مص أصابعه أثناء النهار في سن الثانية ولكن علينا أن نروده بلعب مناسبة تشغله بدلا من وضع مادة مرة المذاق على أصابعه .

ولكى نطبق الطرق التربوية بطريقة تساعد الطفل على استكمال النمو السوى ينبغي علينا أن نعرف المراحل المختلفة للنمو الغريزى : أى معرفة ما هو طبيعى بالنسبة لعمر معين : كما أنه ينبغي تهيئة الوسط الاجتماعى للطفل . فيجب أن يعد المنزل بحيث تخصص فيه غرفة للعب الأطفال لأن الطفل يجد في اللعب تنفيسا عن بعض ما يعاينه من ضروب الصراع .

هذه باختصار هى أهم العوامل الرئيسية التى يترتب عليها تعديل الحوافز والدوافع الجنسية المضادة للمجتمع . وبمعرفةنا لهذه العوامل يكون فهمنا أكثر لأهمية النمو الانفعالى الذى يطرأ على الطفل فيما بين الثالثة والخامسة ، أى مرحلة النزعات الأوديبية .

ولكن علينا أن نوجه النظر إلى علاقة الطفل بأمه لما لها من عظيم الأهمية في تكوين خلق الطفل . فيجب أن تسود الروح الواقعية بين الطفل والأم . فإذا ما بالغت الأم في إظهار حنانها بصورة مفرطة أدى هذا إلى تعطيل النمو الوحيدانى للطفل وتثبيته عند مرحلة معينة . وقد يؤدي هذا الاتجاه الذى يتصف بالمبالغة في الحنو إلى فشل الطفل في حياته الزوجية : مثال ذلك تلك الحالة التى درسها الكاتب . س . ع مات أبوه وهو فى العام الأول من عمره . فعملت أمه على تربيته تربية ناعمة لأنه الذكر الوحيد ، فأخذت تجيب جميع مطالبه

خوفاً من ثورته . واتسم سلوكه بطابع الأنانية وعدم الواقعية في معاملته للغير ، وعند زواجه الذى انتهى بالطلاق نظراً لأنه يود من زوجته أن تعامله كما كانت تعامله أمه أى تسرع إلى إجابة جميع مطالبه . وأكثر من ذلك أن أمه كانت تتدخل دائماً في العلاقة بينه وبين زوجته . ومن الملاحظ أن أمه كانت تسرع إلى إجابة جميع مطالبه وتلقى اللوم جزافاً على الزوجة . ولعل العوامل التى ساعدت على مضاعفة المشكلة في هذه الحالة كونه الذكر الوحيد في العائلة وموت أبيه وهو صغير .

ويظهر أثر الحنان المفرط في حالة م . ش . وهو شاب يبلغ التاسعة عشرة من عمره . وكان يشكو من حصر نفسى . وهذه الحالة تتضمن - كما اعتقد - عاملاً جديداً ساعد على مضاعفة المشكلة ألا وهو وجود « زوج الأم » . ولتناول طفولته بالبحث . كان م . ش . الطفل الذكر الوحيد لأمه ولذئذ كان محط عناية أمه وتدليلها المفرط فكانت تسرع في الحال إلى إجابة جميع مطالبه . مات أبوه وهو في السادسة من عمره . وتزوجت أمه بعد قليل . وصحب هذه الحالة تغير في مركز الطفل . فبعد أن كان ينام في نفس الحجرة التى تنام بها أمه انتقل إلى غرفة أخرى . وكان من الممكن أن يمر هذا التغير بسلام أولاً العناية المفرطة التى كان يتمتع بها من قبل . فشر الطفل أن أمه أصبحت لا توجه إليه نفس العناية السابقة بسبب وجود « زوج الأم » وساعد على مضاعفة المشكلة ظهور أخت له . فاستقبلها استقبالا سيئاً . وأصبح يكن لزوج أمه مشاعر عميقة من الكراهية . ولكن نظراً لضعفه بإزارته وجه هذه المشاعر العدوانية إلى أخته . فكان يلجأ إلى قتل الباب عليهما وحدهما ويضربها ضرباً مبرحاً بحجة تعويدها الأدب على الرغم من بلوغه في هذا الوقت السابعة عشرة من عمره . ولا يخفى علينا « الإبدال » الذى كان يعمل في هذا الموقف . فقد نقل انفعالات الكراهية من زوج أمه إلى أخته وأخذ في « تبرير » ذلك السلوك على نحو عقلى . وفي أحيان أخرى كانت تنفصح نزعاته العدوانية نحو « زوج أمه » في توجيه بعض الشتائم إليه . وكانت أحلام الشاب تدور حول التخلص من « زوج الأم » وابنته . وهاك أحد الأحلام التى حلها الكاتب : فلقد حلم الشاب أنه اشترى سيارة من أمريكا وشحن أجزاءها في طائرة ولكن الطائرة وقعت في البحر وتحطمت . وهاك الأفكار التى كشف عنها التداعى بالنسبة للسيارة : ذكر أنه يتوق

إلى شراء سيارة ثم ذكر بانفعال وصعوبة أن « أختا لزوج أمه » قد مات في طريقه إلى بلدته أثناء نقله وهو في حال المرض إلى المستشفى . وهنا وضع معنى الحلم . فما لا شك فيه أن « أختا لزوج الأم » بديل عن زوج الأم الذي يود أن يتخلص منه . فكما مات أخو زوج أمه في سيارة فليمت زوج أمه كذلك . وواضح أيضاً أن « الطائفة » إنما ترمز إلى الأم . فكأن المعنى الذي يهدف إليه الحلم هو التخلص من زوج الأم والأم معاً كما يشير أيضاً إلى التخلص من أخته لأُمه لأن « أخته » « جزء » أو بعض من أمه . وقد تكون الرغبة في التخلص من الأم مدعاة للغربة . ولكن الغربة تزول إذا ما عرفنا أن الحب الشديد قد يكون ستاراً لكراهية لا شعورية شديدة .

لقد عرضنا الآن لنضج الغريزة الجنسية وتعديلها وعلاقة الطفل بأمه . وبينما ما هذه العوامل من أثر في تكوين الخلق ، ولم يبق إلا أن نعرض لنشوء « الذات العليا » وينبغي علينا أن نشير إشارة موجزة إلى الشعور والاشعور . وإذا فرغنا من ذلك تناولنا رأي سيجموند فرويد وأرنست جونز وميلاني كاين في أصل ونشوء الذات العليا . ونأمل بعرضنا لهذه الخطوات أن نرسم صورة واضحة التسميات لتكوين الخلق عند أصحاب التحليل النفسي .

(للبحث بقية)

كمال الدين عبد الحميد نايل